

الإنسان في فلسفة الفارابي*

قيس جواد العزاوي**

قليلة هي الكتابات الفلسفية الجادة التي تضيف جديداً لمباحثنا المعرفية الأصيلة. ويمكنني أن أقول بكل ثقة: أن الحظ قد حالفني وأنا أطلع على بعض هذه الكتب الصادرة في المغرب ومصر ولبنان في السنوات الثلاث الأخيرة، ومنها كتاب الدكتور إبراهيم العاتي عن "الإنسان في فلسفة الفارابي"، وأنه إلى كم تفتقر حياتنا الثقافية لكتابات جادة حول مبحث الإنسان ومبحث التاريخ! فتلك مباحث تغني الفكر بمشاعل العصر وتوصله.

ويظهر الإنسان جلياً متألقاً لدى إخوان الصفا في تقسيمهم الرباعي للحكمة: منطوق وطبيعات وإلهيات ونفسانيات. ويتجسد الإنسان بوصفه مبحثاً مستقلاً في الرسالة الثالثة "من النفسانيات العقلية" في قول الحكماء: إن العالم إنسان كبير، وقولهم: "إن الإنسان عالم صغير". ومع ذلك يبقى مبحث الإنسان لدى قدماء المسلمين محدوداً.

وكان اختيار مبحث الإنسان لدى المعلم الثاني الفارابي اختياراً موفقاً جداً، فالفارابي كما يذكر إبراهيم العاتي خصَّ الإنسان باهتمامه ليس بوصفه حقيقة فردية فحسب، وإنما بوصفه حقيقة اجتماعية تبحث في علاقة الإنسان مع الآخرين. وعلى الرغم من ضياع أغلب تأليف الفارابي، بل أن البعض يرى أن ما هو مطبوع منها لا يتطابق مع نظرياته، فقد راجع الكاتب أغلب المطبوع والمخطوط من تأليفه لكي

* د. إبراهيم العاتي، الإنسان في فلسفة الفارابي (بيروت: دار النبوغ، ١٩٩٨).

** دكتوراه في التاريخ من جامعة السربون (١٩٩٢) باحث ومفكر مقيم في باريس، ورئيس تحرير مجلة دراسات شرقية.

يتناول مبحثه بموضوعية وعين ناقدة لاحظناها في كل معالجاته، حيث اتبع العاتبي منهج التحليل المقارن للكشف عن مصادر التأثير والتأثير والجددة والإبداع بين ما جاء به الفارابي، وما أورده الفلاسفة اليونانيون والمسلمون.

بحث الكاتب في حياة الفارابي وتكوينه الروحي والثقافي فوجدها مكونات إسلامية أولاً، ولم تؤثر اطلاعاته على فلسفات الأمم على هذه المكونات، بل على العكس زادت إيمانا ومعرفة. إن هذا الفيلسوف المشهور في عهده عمل ناطوراً في بستان بدمشق لكي تتسنى له متعة القراءة في ضوء الفوانيس، وكان زاهداً في دنياه منفرداً لا يجالس الناس. وكان من أشهر تلاميذه ابن سينا.

أما منهج البحث لدى الفارابي، فهي مناهج تتنوع بتنوع مباحثه الفلسفية وتعبير عن مدى الاتساق والارتباط والإحكام في رؤيته للإنسان. فهو يصنف العلوم على أسس عقلية محددة، مبنياً صلة بعضها ببعض الآخر وموضحاً الخصائص الذاتية المشتركة لكل علم.. ويقوم مذهبه على أساس السعادة التي هي غاية يتشوقها كل إنسان، وهي أكمل غاية، بل هي نهاية الكمال الإنساني، وهي أمر اكتسابي يشترط الحصول عليه توفر الشروط الذاتية والموضوعية.. ونرى أن شاغل التوفيق ما بين الفلسفة والدين قد شكل إحدى اهتمامات الفارابي وهي كثيرة. وفي اعتباره فإن اتفاق الدين والفلسفة يستند إلى أسس معينة وهي:

الأول: وحدة المصدر ومرد الشريعة إلى الله.

الثاني: وحدة الوساطة إذ أن النبي والفيلسوف يستمدان العلم من الله.

الثالث: وحدة الموضوع، فموضوعات الدين وموضوعات الفلسفة عنده واحدة.

وقد كانت محاولة الفارابي هذه نهجاً سار عليه الفلاسفة المسلمون فيما بعد ولعل أبرز من برعوا في التوفيق بين الدين والفلسفة هو ابن رشد الذي كتب كتابه "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال" واعتمد على أفكار الفارابي نفسها.

وتبين لنا نظرية العاتبي النقدية في تعامله مع الدراسات التي أجريت على فلسفة الفارابي.. فنراه ينتقد الدارسين ويبرز توهماتهم وتناقضاتهم، فقد رد في الصفحة ١٥ على الدكتور جعفر آل ياسين الذي اعتقد أن الفارابي استخدم في كتابه آراء المدينة الفاضلة منهج الجدل النازل حينما طبق في السياسة المدنية منهج الجدل الصاعد.

وقسم الفارابي قوى النفس إلى خمس هي: غاذية، وحاسة، ونزوعية، ومتخيلة، وناطقية. وقد تأثر بنظريته هذه ابن سينا. ويرى العاتي التأثير الشديد لفكر الفارابي السياسي على تقسيمه لقوى النفس، فهناك قوى متميزة يحكم بعضها البعض الآخر ويحكمها جميعاً عضو رئيس كما في مدينته الفاضلة، ولكن على الرغم من هذا التمايز فإن هناك وحدة بين قوى النفس. كما يلاحظ أن الفارابي لا يثبت على حال واحد في تقسيمه لقوى النفس فهي تارة خمسة وأخرى أربعة وربما أقل من ذلك.

لقد مهد الفارابي بإحصاء العلوم والمنطق لنظرية المعرفة وعلاقتها بالنفس فإن رأي الفيلسوف يتأسس على مذهبه في النفس. درس الفارابي نظرية المعرفة حيث يتجلى جوهر الإنسان. وقسم المعرفة إلى: معرفة حسية ومعرفة عقلية ومعرفة ذوقية أو إشراقية وهي معرفة متصلة ومتزايدة. لقد جعل الفارابي حصول المعرفة في الذهن البشري وكذلك صحتها متوقفاً على العقل الفعال، ذلك أنه سمي فعالاً لأن العقل المستفاد عند الإنسان يفعل به. ومن هنا يظهر تلاقي نظرية المعرفة عنده بنظريته في الفيض، ويظهر أيضاً التقاء الفلسفة بالتصوف. والإنسان في سعيه للكمال لدى الفارابي لأبد أن يضع العقل الفعال في اعتباره، فهو غايته. ولذلك فإن الإنسان الذي يبلغ تلك المنزلة، ورتبة العقل المستفاد، لأبد أن يتصل بالعقل الفعال بضرب من الاتصال بأنه يكون قد عقله. ومن الملفت للنظر أن الفارابي لا يقصر اليقين على البرهان والقياس، بل يمكن أن يتحقق اليقين بالطباع والتجربة أيضاً. ومع أن الفارابي يتفق مع أرسطو في وجود مبادئ أولية هي بمثابة الأساس للمعرفة اليقينية فإنه يختلف معه في أصل هذه المبادئ. فبدلاً من أن يفسرها بقوة تشبه "الحاسة الطبيعية" عند الحيوان كما فعل أرسطو فإنه يلجأ إلى مصدر خارجي هو العقل الفعال لتفسيرها. ويستنتج الكاتب أن هذا التفسير اتجاه إشراقي يخالف فيه مذهب المعلم الأول أرسطو. وكعادته ينتقد العاتي بعض الدارسين للفارابي فيجد أن د. جميل صليبا يرجح رأي الفارابي في المطابقة بين الصور العقلية وموضوعها الخارجي. وهذا محض استنتاج لأنه يهمل الرأي الوارد في كتاب المسائل الفلسفية والذي يعبر فيه الفارابي عن رأيه في عدم التطابق بين ما هو الذات وبين الموضوع الخارجي.

وعند بحثه "الإنسان في المجال الخلقى" يجد العاتي أن الإنسان في فلسفة الفارابي

لالتقاط الأسس والمبادئ التي حكمت فلسفة الفارابي في هذا الشأن.. وهو عمل اقتضى كما تبين لنا الاطلاع على قدر كبير من مؤلفات الفارابي ومخطوطاته غير المحققة.. ولكن استطلاعي لمراجع الكتاب قد بين لي أن الدكتور العاتي لم يرجع لكتاب الفارابي الضخم "الموسيقى الكبير" الذي طبع بعناية الأستاذ لاند وقدمه لمؤتمر الشرق السادس بليدن عام ١٨٨٤. وترجم بأكمله إلى الفرنسية بعناية البارون دي أرلانجيه سنة ١٩٣٠-١٩٣٥. وصدر بالعربية بعد أن حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة وراجعته وقدم له محمود أحمد حفني وصدر عن دار الكتاب العربي بالقاهرة بدون تاريخ.. ويُعدّ من أعظم ما وضع في الموسيقى العربية منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا.. ومن المؤسف له أن ملحق الكتاب الذي تحدث عنه المؤلف في مقدمته، قد ضاع وفقدنا بضياح هذا الملحق المهم الحديث عن أهم آراء الناظرين من القدماء في صناعة الموسيقى..

وكلي يقين أن الحديث عن الموسيقى وضخامة ما ألفه الفارابي فيها يمثل جانباً مهماً في فلسفته الإنسانية التي هي كما يذكر المؤلف محور فلسفته كلها. إن المعرفة بعلم الموسيقى وإسهام الفارابي الفريد فيه تمثل إطلالة عميقة عمّا يكتنف النفس البشرية من عمق إلهي وبشري يعزز مذهب السعادة الذي يتبعه الفارابي.